

مفاوضات الفتح العربي لمصر

للأستاذ السيد يعقوب بكر

(تت)

(ح) مفاوضات ثالثة

يحكي لنا الواقدي (ص ٢٥ - ٢٨) أن أرمnose ابنة المقوقس كانت في طريقها إلى قيسارية لتُزفَّ إلى فلسطين (يقصد قسطنطين) بن هرقل، فلما علمت أن قيسارية قد حاصرها العرب، عادت إلى مصر بما كان معها من الخدم والمال، فإ وصلت إلى بليس، حتى جاءت جيوش عمرو وحاصرتها. ثم يقول الواقدي: إن العرب اقتحموا المدينة وأسروا أرمnose، ولكن عمراً أرسلها إلى أبيها المقوقس، اعترافاً منه بحسن صنيعه (أي صنيع المقوقس)، حين أنه منذ سنين عدة رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، يحملها إليه. طُلب بن أبي بلتعة. أرسل عمرو أرمnose إلى أبيها مع قيس ابن سعد، فيصل هذا ويدور بينه وبين أبيها حديث طويل يسجله لنا الواقدي (ص ٢٨ - ٢٩). ونحن نعيننا هنا الجزء الأخير من هذا الحديث (ص ٢٩): «فقال المقوقس لقيس ابن سعد: يا أبا العرب، إرجع إلى أصحابك وأخبرهم بما سمعت وبما رأيت، وانظر فيما يستقر عندكم وبينكم؟ فقال قيس:

أبيها الأرواح الشوارد بأعلى النيل، أيها الحافظون لأعباد الإسلام بالوادي السحيق، هل تعرفون مكاتكم في أنفس المصريين؟ لذلك حديث وأحاديث، فانتظروا قليلاً، فسأقص من أخباركم ما تجهلون

أيها الشاعر الذي حيّا مصر، حيّاك الله وحيّاك ثم حيّاك، فقد طوّقت جيد مصر بقلائد صيغت من حبات القلوب أهدأ شعراً أم سحر؟

هو فوق الشعر وفوق السحر، هو إلهامٌ جادت فطرته كريمة الأصل، في بلاد أبنائها أصلاء

وإلى الأستاذ عبد العزيز عبد المجيد تحيتي وثنائى، فهو الذى حمل إلى هذا القصيد، كما يحمل النسيم رسائل المحبوب إلى الحبيب
نكى مبارك

أيها الملك، لا بد لنا منك، ولا ينجيك منا إلا الإسلام أو أداء الجزية أو القتال. فقال المقوقس: أنا أعرض ذلك عليهم، وأعلم أنهم لا يجيبون، لأن قلوبهم قاسية من أكل الحرام»

فهل نعد ذلك الحديث مفاوضة؟ لا شك في ذلك. ولكننا نعتقد اعتقاداً جازماً أن هذه المفاوضة لم تكن، وذلك لسببين: الأول أن قصة أرمnose نفسها موضوعة؛ فالأستاذ بتلر يقول فيها (ت ٣ ص ١٩١): «ولا حاجة بي إلى إضاعة الوقت في تفنيد هذه القصة، فإن مجرد العلم بأن المقوقس كان بطريق الإسكندرية كاف لدحضها... ويجدر بنا هنا أن نذكر أن أبا صالح قال: إن «أرمnose» هي الإسم المصرية القديم لمدينة أرمنت (ص ٢٧٩). وقد ذكر ابن عبد الحكم بشير دقة أنها امرأة المقوقس، وذكر كرمًا كان لها أغرقته فصارته منه بحيرة صربوط. وإنه مما يؤسف له أن هذه القصص التي يحملها خيال ألف ليلة وليلة مما يجب علينا إبعاده من التاريخ»؛ والثاني أن المقوقس لم يكن هو الذى تسلم رسالة النبي عليه الصلاة والسلام وإنما الذى تسلمها هو «جرج» الذى سمي «بالمقوقس» في (الرسالة) خطأ، وهو حاكم الإسكندرية ونائب الملك في مصر (بتلر ص ١٢٥)

(د) مفاوضة رابعة

يحكي لنا الواقدي (ص ٣٥ - ٣٩) ما فعله العرب الذين كانوا سائرين لنصرة عمرو - مع العرب المنتصرة الذين كانوا سائرين لنصرة أرسطوليس وكيف أن أرسطوليس هذا استهدف لمكيدتين: مكيدة عمه أرجانوس الذى أدرك مقتل أخيه على يداينه (أي ابن أخيه)، ومكيدة العرب المسلمين الذين انبثت طائفة منهم في ممسكه مظهرة بأنها جماعة العرب المنتصرة الذين جاءوا لنصرته؛ ثم كيف هُزم بسبب هاتين المكيدتين أمام الحصن وفر إلى الإسكندرية. وبعد ذلك يقول الواقدي (ص ٣٩): «قال ابن إسحق) حدثني من أتق به أنه قُتل في تلك الليلة من عسكر القبط خمسة آلاف، وغنم المسلمون أنقاهم وما كان فيها من الأموال. فلما أقبل الصباح اجتمع خالد بالسلمين وسلم بعضهم على بعض وهنؤم بالسلامة، ودخلوا مصر وملكوا ديارها وأحاطوا بقصر الشمع. فأشرف عليهم أرجانوس بن راعيل أخو المقوقس، وقال لهم: يا فتيان العرب، اعلموا أن الله قد أمدكم بالنصر، وقد فعلت في حقكم كذا وكذا، ولو لا جيلتي على ابن أخي

وخلّفوها ظهرًا ؛ ثم السبي إلى لقاء الله تعالى والاستشهاد في سبيله والظفر بجنته ونعيم آخرته

وكان عبادة بن الصامت وأصحابه لا يجدون ما يصلح أساساً للمفاوضة بينهم وبين القوقس وأصحابه غير هذه الثلاث الخصال : إما الإسلام وإما الجزية وإما القتال . ذلك لأنها الأساس الوحيد الذي يرضى به المسلم المعمور القلب بالإيمان الخالص الضمير من أعراض الدنيا الموطن النفس على الاستشهاد

أما القوقس فكان في أول الأمر تسيطر عليه زعتان : الأولى هي خوف العرب وخشيتهم . والثانية هي الحرص على سلطان هرقل من أن يزول عن مصر . ولذلك وجدناه يصطنع الحيلة لصرف هؤلاء العرب عن البلاد ؛ فيأخذ في تخويف عبادة وصحبه من جوع الروم التي تتجمع للقائم وتوشك أن تنقض عليهم فلا يستطيعون لها رداً ، ويأخذ في إظهار شفقتة على هؤلاء العرب الذين يقاسون شظف العيش وضيق الحياة ، ثم يأخذ أخيراً يقول : « ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين ولا ميركم مائة دينار وتخليفتكم ألف دينار »

ولكن عند ما يدرك أن العرب قوم ليسوا كالأنعام وأناس ليسوا كالأناسي ، وأنهم قد طلقوا الدنيا فلا يرضيهم منها إلا شظف العيش وضيق الحياة ، وأنهم يتمنون لقاء الروم الذين يوشكون أن ينقضوا عليهم ليظفروا بالشهادة إن غلبوا أو ليحلوا منار الإسلام إن غلبوا ، عند ما يدرك ذلك تغلب عليه نزعة الخوف والهبة ، وينصح لأصحابه أن يسلموا البلاد للعرب ويدفعوا الجزية ولكن أصحاب القوقس كانوا قوماً لا يرضون الخروج من دين ابن مريم إلى دين لا يعرفونه ، ولا تطيب نفوسهم بأن يذلوا ويهونوا ، ولا يرون إلا القتال سبيلاً لهم . لذلك رفضوا نصيح القوقس وعادوا إلى القتال

هذه هي الروح المسيطرة على الطرفين المتفاوضين . ولكننا لا نحب أن نختم البحث قبل أن نقول إنها الروح المسيطرة على العرب والروم ؛ فقد كان القوقس رومياً (بتلر ، الملحقان ٧٣ من كتابه) ، وكان أصحابه روماً . أما القبط فلم يكن لهم اشتراك في سياسة البلاد ومفاوضة الغزاة ، فقد كان القوقس (قيرس) لا يزال على عهده المدوالاً كبيراً لمذهب القبط (بتلر من ٢٢٠ ، ٢٢١)

البسم يعقوب بك

(تم البحث)

لما انهزم منكم ، وقد ظفرتم الآن ، ونحن نسلم إليكم على شرط أنكم لا تتعرضون لنا ولا تمدون أيديكم لنا بسوء ، ومن أراد منا أن يبيتي على دينه يؤدي الجزية ، ومن أراد أن يتبعكم يتبعكم . فقال له معاذ بن جبل : قد نصرنا الله على الكفار بصدق نياتنا وصالح أعمالنا واتباعنا للحق ، وإنا ما قلنا قولاً إلا وفيناه ، ولا استعملنا الغدر ولا المكر ، وأنتم لكم الأمان على أنفسكم وأموالكم وحرعكم وأولادكم ، ومن بقى منكم على دينه فلن نكرهه ومن اتبع ديننا فله ما لنا وعليه ما علينا . فلما سمع أربانوس ذلك نزل إليهم بالمفاتيح ، فأمنوه وأمنوا من كان معه في القصر ، وجموا أكبر مصر ومشايخها ... »

فهل نعد ذلك مفاوضة ؟ لا شك في ذلك . ولكن القصة كلها من أولها إلى آخرها موضوعة ليست فيها إثارة من صواب فقد قلنا من قبل إن القوقس لم يمت في ذلك الوقت ، وإن اسم أرسطوليس لم يرد في غير كتاب الواقدي ؛ ونقول الآن إن اسم أربانوس لم يجد كذا عند غير الواقدي . وليست بنا حاجة لتنفيذ هذه المفاوضة إلى القول بأن قصة العرب المتصورة موضوعة وإننا لم نجد لها في غير كتاب الواقدي .

خلاصة القسم الأول من البحث أنه لم يصح عندنا إلا وقوع مفاوضات : الأولى عند بليس بين عمرو وجماعة عليها أحد الأساقفة ، ولم يرد إلينا نص ما دار في هذه المفاوضة . والثانية في جزيرة الروضة أثناء حصار حصن بابليون بين القوقس وعبادة ابن الصامت ، وقد ورد إلينا ما يقول مؤرخو العرب إنه دار في هذه المفاوضة ، ولكننا لا نظن أن الذي نقله إلينا هؤلاء هو ما دار في هذه المفاوضة بالضبط ، وإن كنا لا نشك في أنه لا يختلف عنه من حيث الروح المسيطرة على الطرفين المتفاوضين فلنشرع إذن في القسم الثاني من البحث في تلمس هذه الروح في ما نقله إلينا مؤرخو العرب وتنظيمها منه

القسم الثاني

كان عبادة بن الصامت وأصحابه تسيطر عليهم تلك الروح التي كانت تسيطر على العرب جميعهم في ذلك الوقت : الانصراف عن الدنيا وأعراضها وملذاتها ، تلك الدنيا التي طلقوها ونبذوها